من سير الخالدين

حيـــــاة المازنى

للأستاذ محمد محمود حمدان

(قل بين الصبيان من اتفق له ما اتفق لى من التجارب) « المازنى »

— ٤ —

فى التدريس

نال المازنى إجازة التدريس من مدرسة المعلمين العليا (١٩٠٩) وهو إذ ذاك شاب فى التاسعة عشرة لم يطرّ شاربه ، فكان يستعجل مظاهر الرجولة فى نفسه . . « فأحلق وجهى ثلاث مرات فى اليوم لعل ذلك يعجل بإنبات الشعر ، فقد اشتهيت أن يكون لى شارب مفتول وخدان كأنما سقيا عصير البرسيم ! »

وكان من أوائل المتخرجين فعينته الوزارة مدرساً للترجمة بالمدرسة السعيدية ، ومنها نقل إلى المدرسة الخديوية . وكلفته الوزارة فى ذلك الحين تدريس مبادئ اللغة العربية للأساتذة الإنجليز بمدارسها فترجم لهم فصولا من كتاب « كليلة ودمنة » غير معتمد فى ذلك على الترجمة الإنجليزية كما يقول الأستاذ العقاد .

ولم يلبث أن وقعت بينه وبين وكيل المعارف جفوة نقل على أثرها إلى مدرسة دارالعلوم . وكان هذا النقل فى ظاهره « ترقية » وإن لم يكن كذلك فى حقيقته ، لأن مهمته فيها كانت تدريس مبادئ الإنجليزية لطلبة دار العلوم . ولم يسترح المازنى إلى هذا التكليف فكان من الأسباب التى حملته على ترك وزارة المعارف بعد ذلك بقليل .

ولا شك أن تلك الجفوة تدلنا على ما كان يعتصم به المازنى من الإباء والضن بالكرامة فى وسط شاع فيه التزلف والرياء . وقد كان المستشار الإنجليزى « دنلوب » فى ذلك الحين رب الوزارة والحاكم بأمره فيها ، فلم يكن كبير أو صغير إلا ويرهب صولته ويتقى غضبه . ولكن المازنى لم ير فيه مايرهب أو يخيف حين دعى يوماً لمقابلته ليسأله المستشار رأيه فى بعض المدرسين الإنجليز . وتفصيل ذلك مارويه عنه :

« اتفق يوماً — فى آخر عهدى بالتعليم فى وزارة المعارف — أن قصدت إلى مدرسة دار العلوم ، وكنت معلماً بها ، فألفيت ناظرها — وهو مصرى — على بابها ، فاستقبلنى بالاحتجاج على تأخرى ، فاستغربت وبينت له أنه لايزال على موعد دروسى نصف ساعة . فصاح « من قال إننا نريد منك اليوم دروساً ؟ إن جناب المستشار يطلبك ! وقد بعث إليك رسولا فكيف لم تعلم ؟ » فطمأنته وطيبت خاطره وقلت « إنى سأذهب إلى الوزارة بعد الفراغ من دروسى » . فكأنما ألقيت على النار حطباً ، فقد جعل يصيح على الباب وأمام المارة — « ياخبر أسود ! وجناب المستشار ينتظرك حتى تفرغ ! هل تريد أن تخرب بيوتنا ؟ رح إليه حالا ! الآن ! » . فركبنى عفريت الشباب المتمرد ، وكنت أكره هذا الناظر ولا أحترمه فأبيت أن أذهب إلا إذا أعطانى أمراً كتابيا بإعفائى من التدريس فى ذلك اليوم . وقصدت إلى الوزارة فإذا على رأس السلم طائفة من كبار الوظفين المصريين فجعلوا يشيرون إلى كالمجانين ويأمروننى أن أجرى . وكيف بالله كان يستطيع أن يجرى من كسرت ساقه ولم يبرح بيته إلا منذ أسبوع ؟ . . وقابلت المستشار ومعه كبار الإنجليز وسألنى عما أراد فجاوبته ، وانصرفت وأنا أستغرب وأتساءل عن ذلك الغول الذى يرعب كل هؤلاء الرجال أين هو ؟ ولاحظت وأنا منصرف أن رؤوساً أو وجوهاً تطل من الأبواب المواربة ، ولا شك أنه أذهلهم أن يروا مدرساً صغيراً يدعى لمقابلة المستشار »

ولم يكن هذا الشعور من المازنى تكلفاً للعظمة أو تظاهراً بالاستخفاف ، ولكنها طبيعته التى تملك عليه أمره فى كل كبيرة وصغيرة . وكاد يستقيل من الوزارة حين بدا له أنها تنظر إلى المعلم نظرتها إلى طوائف « الموظفين » وأنها لاتقدر رسالته تقديرها الصحيح . ويروى أنه مرض يوماً « . . فطلبت إجازة ، وأبطأ الطبيب وشفيت قبل أن يحضر ، فطالبتنى الوزارة بتقديم شهادة طبية تثبت أنى كنت مريضاً ، فكتبت إليها أنه لم يعالجنى طبيب فعادت تطالبنى بالشهادة الطبية ، فكتبت أنبهها إلى أنها ، فى الواقع ، تكلفنى أن أحمل طبيباً على التزوير . وكثرت المكاتبات القيمة فسئمت ؛ فكتبت إليها أنى معلم ، وقد كان المسيح عليه السلام يدعى المعلم ، وكان أرسطو يسمى المعلم الأول ، وأنى مؤتمن

على عقول مائتى تلميذ وزيادة ، فيجب على الأقل أن أعد صادقا وإلا فإننى أوثر أن أستقيل من وزارة تنظر إلى العلم هذه النظرة»

وقد كان المازنى كما ذكرنا مدرس ترجمة . فحدث عند نقله إلى المدرسة الخديوية أن اختارت الوزارة لتدريسه مادة الحساب . وبين المازنى والحساب ، والرياضيات عامة ، عداء قديم ونفور طبيعى لايخفيه ، أو كما يقول هو « لاأكتم القارئ أنى أخيب خلق الله فى الحساب » . . فلابد إذن من تفادى هذه الورطة ! ولكن كيف السبيل ؟

يقول المازنى وهو يروى هذه القصة فى كتابه الساخر « رحلة الحجاز » :

« . . اعترضت واحتججت ، فما أجدى عنى اعتراضى شيئاً ، فقصدت إلى ناظر المدرسة — وكان إنجليزيا — وقلت له : إن وزارة معارفنا تعتقد أن كل امرئ يصلح لكل شئ ؛ ولكنى أعرف من نفسى أنى لاأصلح لتعليم الرياضة عامة والحساب خاصة ، وأصارحك أنى لاأصدق أن واحداً فى واحد يساوى واحداً ، هذا ، كما يقول شاعر عربى ، كلام له خبئ معناه ليست لنا عقول. وقد تكون أولا تكون لنا عقول ؛ هذه مسألة خلافية ندعها الآن ، ولكن المحقق عندى أن العلوم الرياضية وفى جملتها هذا الحساب لاتدخل فى دائرة عقلى ، فهل لك فى عونى على ما أريده ؟ فضحك وقال : وما تبغى ؟

قلت : تعفينى من التدريس للفرق العليا ؛ وتقنع بأن تكل إلى تلاميذ الفرقة الأولى ، أعنى الحاصلين على الشهادة الابتدائية فى هذا العام ليتسنى لى أن أحفظ الدرس أولا فأولا ، ثم ألقيه عليهم ، فنتعلم معاً ، وفى خلال ذلك تبذل وساطتك لترددنى مدرس ترجمة كما كنت .

فسرته صراحتى ووعدنى خيراً . وشرعت فى العمل ، وكنت أحفظ الدرس جيداً وأراجع زملائى ثم أدخل على التلاميذ وألقنهم ماحفظت ، وقد وفقنى الله فى الهندسة والجبر ، أما الحساب فأعوذ بالله منه ! لم أكن أخطئ فى كل مسألة أطرحها على التلاميذ ، ولم أكن أكتمهم أنى أجهل منهم وأن الذنب للوزارة وليس لى ، وأن الوزارة هى المسئولة عن خلطى وتخبطى ، وأنصف التلاميذ فأقول إنهم قبلوا عذرى واغتفروا لى ضعفى وجفونى بعطفهم ولم يبخلوا على بإيضاح مايشكل على وبهدايتى إلى الصواب حين أضل ، وكنا أحياناً — إذا استعصى عليهم إفهامى طريقة الحل — نقضى بضع دقائق فى ندب سوء حظى وحظهم ، وربما قال الواحد منهم وقد فاضت نفسه بالعطف على والرثية لى : كيف ترتكب الوزارة مثل هذا الخطأ الشنيع فتعهد إلى تدريس العلم إلى جاهل به ؟

ولم ينقذنى إلا مفتش إنجليزى جاء على عادته ليشرف على سير الدراسة ، فعلمت أنه مع الناظر فى غرفته ، وكانت مجاورة للغرفة التى أنا فيها ، فأوصيت الخادم أو الفراش كما يسمونه — بأن يدعوه إلى ، حين يخرج ، وفتحت الباب على مصراعيه فلما دخل على رحبت به واحتفيت بمقدمه وسرت به إلى مقعدى ومكتبى ؛ وهناك سلمته كراسة التحضير وكراسة الأسماء ، وإصبع الطباشير وممسحة السبورة ، وقلت له : التلاميذ أمامك ، ومعك كراساتى وأدواتى ، فالسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وخرجت ، فجرى ورائى وأدركنى أمام غرفة الناظر وقال : إن هذا جنون . فعد إلى فرقتك . فقلت : جنون ؟ وهل كنت تنتظر أن أظل عاقلا ؟ لقد صارحتكم مائة مرة بأنى حمار ؛ فماذا تريدون ؟ إن لى ذمة ، وذمتى لاتقبل أن أضيع على التلاميذ المساكين سنة من أعمارهم . قال : ولكنى أكدت لك أننا لانجد مدرساً للرياضة فيحل محلك . فانتظر حتى نجد واحداً ثم نعيدك إلى الترجمة . فقلت : كلا ! تتولى أنت التدريس حتى تجدوا المدرس ، وأنا مستعد أن أقوم عنك بمهمة التفتيش . فضحك ، وضحك الناظر وكان قد خرج على سوتنا ، ولا أطيل : أقنعانى بالعودة إلى فرقتى على ألا يطول عذابى إلا أياماً معدودات ، وقد كان » .

* * *

واتفق فى عام ١٩١٥ أن أصدر المازنى كتاباً فى نقد « شعر حافظ » وكان يمثل فى رأيه المذهب القديم . وهو مجموع مقالات كتبها قبل ذلك بعامين ونشر بعضها فى مجلة « عكاظ » ثم جمع متفرقها وطبعها . وظهر الكتاب وكان له دويه . فلم يكن أحد فى ذلك الحين ليجرؤ على نقد حافظ وهو آمن . وكان أحمد حشمت « باشا » وزيراً للمعارف وصديقاً لحافظ ، فساءه النقد ، واشطط المازنى — وهو مدرس — وأوصى به الرؤساء شرا . وغضب

المازني لكرامته فاستقال .

ويحدثنا المازني أنه راجع نفسه وندم يومه على الاستقالة ، وساورته المخاوف وأدركه الجزع من أن تضيق الدنيا به ، وكانت الحرب على أشدها والغلاء ضارب أطنابه . وأرق ليلته ، فوجد أمه بجانبه لتقول له « لاعليك يابني . لقد تعلمت كل ما يمكن أن تتعلمه هنا . فما خير ذلك إذا عجزت عن الانتفاع به في الحياة ؟ ولماذا لاتستطيع أن تعمل إلا في الحكومة ؟ لقد كنت أنا مستعدة أن أعمل بيدي في سبيل تربيتك ، فكن أنت مستعدا أن تعمل حتى بيديك إذا احتاج الأمر ؛ وثق أنك لن تخيب فإني داعية لك راضية عنك . قم فتم وتوكل على الله ! »

ثم كان أن دعاه الشيخ عبد العزيز جاويش للعمل بمدرسته « الإعدادية الثانوية » واختار له مادة التاريخ . ومن زملائه في هذا المدرسة الأساتذة العقاد والزيات وأحمد زكي .

وقد كان المازني مدرسا ناجحاً ، وكان مابينه وبين تلاميذه عاماً قائماً على التوقير والتقدير ، إذ كانوا شبانا وكان هو كذلك لايكبرهم إلا قليلا . والتقارب في السن أدعى إلى التجاوب وحسن الأخذ والتلقي . وكان نمطاً جديداً في الأساتذة لا عهد للتلاميذ بمثله . ولم يكن اعتماده في تحضير الدروس وإعدادها على الكتب المقررة أو الموضوعة ، بل كان يعتمد على موهبته الشخصية ومحصوله الخاص . وكان الأثر الذي خلفه في نفوس تلاميذه قويا موحياً ، فدلهم طريقته الفريدة في ذلك الحين على حقيقة مدرسهم وأي أستاذ عظيم هو . وفي الحادثة التالية التي يرويها الأستاذ عبد الرحمن صدقي — وهو من تلامذة المازني في المدرسة الخديوية لذلك العهد مايقوم دليلا على ماكان للأستاذ الشاب من مكانة في نفوس تلاميذه لم يكونوا يعرفونها لأساتذة الطراز القديم

يقول الأستاذ صدقي : « في ذات يوم دخل علينا — على غير علم منا — في درس ترجمة أستاذ غير أستاذنا . ومما زاد في غرابة أمره أنه كان على نقيضه ، فهو شاب من أهل جيلنا لا يكبرنا إلا قليلا . وهو قصير القامة نحيل غير جسيم . ثم إنه لا تركب أنفه نظارة غليظة العويتات كصاحبنا . وهو لايتهادى في مشيته إلى المنصة ، بل قد مشى إليها مشية غير متكلفة ، تخطى متزنة لا سريعة ولا متئدة . وما هو ذا يستقبلنا بوجه مغروط ترين على وسامته صفرة نعرفها في أنفسنا قبيل الامتحان من معاناة الدرس وطول السهر . وها هو ذا يطالع جمعنا من غير تمحيص ولا تحديق ، بناظرين نفاذين وقادين ، فيهما عمق وحزن من غير وحشة وانقباض

وقامت في الصفوف المتأخرة كمألوف العادة هينمة ولغط ، وهب تلاميذ الصف الأول للتحية واقفين ، ونهض الذين من بعدهم بعض النهوض متثاقلين ، وظل الأخيرون قعودا متجاهلين ولكن الأستاذ لم يفارقه سكونه المترفع الحزين ، وكان فوق منصته العالية كأنما يستوى في نظرته العابرة ونفسه الكبيرة الشاملة ، أهل الطاعة وأهل المعصية ، ثم أجل التحية في غير استكراه ولا زلفى

ودق الأستاذ الشاب في لطف على المنضدة . وبادرنا دون أن يرفع صوته : أخرجوا كتاب أدبيات اللغة العربية . فاستولت علينا دهشة وتملكنا العجب ، فللترجمة كان الدرس لا للأدب ! وقبل أن ينقضي عجبنا ونفيق من غاشية ذهولنا ، أومأ الأستاذ إلى أحدنا ، وطلب إليه في غير احتفال أن يفتح الكتاب على أية صفحة وأن يجهر بتلاوتها علينا . ثم توجه إلينا بالدعوة إلى مراجعتها والشروع على الفور في ترجمتها . ولا تسل عما دخل على نفوسنا من هذا الارتجال . إنها — على طول الفترة — أول مرة يجرى فيها درس الترجمة على خلاف الخطة . وليت الأمر وقف عند هذا القدر . بل بلغت الجرأة بأستاذ الترجمة المحدث أنه لم يأخذ لدرسها أدنى أهبة ، ثم كان من ذهابه إلى غاية المدى أنه لم يكن له شأن حتى في اختيار القطعة

في هذه اللحظة ، لو أن متسمعا تسمع لقلوبنا الصغيرة لألفاها جميعا تنبض بلحن واحد : يا للعظمة ! يا للعظمة !

واسترقنا النظر إلى الأستاذ الشاب القصير النحيل ، فإذا هو غيره قبل تلك اللحظة . إنه ملأ عيوننا روعة ، وملأ صدورنا هيبة !

ولم يحدث خلال السنوات العشر التي أنفقها المازني في التدريس ، أن احتاج إلى أن يعاقب تلميذا أو يوبخه أو يقول له كلمة نابية . وكان لقرب عهده بالتلمذة وسابق تجربته وخبرته بشقاوة التلاميذ ، أعرف بما يقابل به الرغبة الطبيعية في هذه

الشقاوة ، ومما يدل على تلك القدرة عنده هذه الحادثة التي يرويها

« اتفق يوما أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق ، وكان الوقت صيفا والجو حارا جدا ، فضاعف الحر شعوري بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة . وأدركت أنها هي المادة التي كنا ونحن تلاميذ نضعها في الدواة مع الحبر فتكون لها هذه الرائحة المزعجة . فقلت لنفسي إنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد ، وإذا كانت الرائحة القبيحة تغثي نفسي فإنها تثني نفوسهم معي أيضا . فحالهم ليس خيرا من حالي ، والإحساس المتعب الذي أعانيه ليس قاصرا علي ولا أنا منفرد به ، وإنهم لأغبياء إذ أشركوا أنفسهم معي وقد أرادوا أن يفردوني بهذه المحنة . والفوز في هذه الحالة خليق أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال . فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد الأخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودوا إلى مثلها بعد ذلك ، وقد كان . فصبرت وتشددت ودعوت الله في سري أن يقويني على الاحتمال ، ومضيت في الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسي عما أعاني من كرب هذه الرائحة اللعونة . وكنت أرى في وجوههم أمارات الجهد الذي يكابدونه من التجلد مثلي فأسر وأغتبط وأزداد نشاطا في الدرس وإغضاء عمن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا في الكلام ، فقد كنت أعرف أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا في فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها . وظللنا على هذه الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها تزهق ورأيت أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك ، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أصررت على عنادي المكتوم واغتنمت فرصة إصبع مرفوعة وسألت صاحبها عما يريد ، فقال إنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد . قلت افتحها . وفتحت النوافذ كلها . وتنهدنا جميعا واستأنفنا الدرس ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال ما لا يطاق . وانتهى الدرس وخرجت فخرج ورائي ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بي . وقال لي واحد منهم إنهم يأسفون لما حصل وأن الأمر كان مقصودا به غيري ، وأنهم يطلبون الصفح ، فسررت ولكني تجاهلت وسألتهم عما يعنون . قالوا : الرائحة الكريهة التي كانت في الفصل . قلت : رائحة .. أي رائحة ؟ إنني مزكوم ولهذا لم أشم شيئا فلا محل لاعتذاركم . ومضيت عنهم »

ويروى الأستاذ العقاد عن تلاميذ المدرسة الإعدادية أنهم كانوا يسمون المازني فيما بينهم باسم (تيمورلنك) ، ويقول الأستاذ الكبير إن سر البراعة في هذه التسمية ، هي أنه كان يدرس التاريخ ، وأنه كسميه صغير الجسم مصاب بإحدى قدميه ، وأنه مسيطر على التلاميذ فلما يحتاج إلى معاقبة أحد منهم لخروجه على نظام الحصة ، لأنه كان مهيبا بينهم قديرا على أخذهم بهيابتهم إياه قبل خوفهم من عقابه ، فجمعوا كل ذلك في اسم تيمورلنك أحسن جمع مستطاع

وفي عام ١٩١٨ تولى المازني أمر مدرسة ثانوية ، فاستغنى في إدارتها عن كثير من الأوامر والنواهي ، وعن دق (الجرس) في مواعيده ، ورفض أن يستعمل في مدرسته (الدفاتر) الوزارية العديدة التي تستعملها المدارس ، كذلك ألغى العقوبات بكافة أنواعها ، فقد كان رأيه أن المدرس الذي يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لمهنة التدريس ، وكانت المدرسة تحت إشراف وزارة المعارف ، فحدث خلاف بينه وبينها بسبب هذه (الإداريات) ؛ هو يراها تافهة لا غناء فيها ولا نفع وراءها ، وتراها الوزارة من اللازم اللازب لحفظ النظام

ولعل هذا الخلاف لم ينته بغير ترك المازني للمدرسة أو إغلاقها في أخريات ذلك العام ، وانتقاله إلى ميدان غير ميدان التعليم

لماذا هجر المازني التدريس ؟

لعل ذلك كان زهدا فيه ورغبة عنه بعد عشر من السنين الولاء هي خلاصة العمر وصفوة الشباب . على أن المحقق أنه رآه أبعد عن طبيعته وأدعى إلى تعطيل مواهبه ، وأنه لا يلتقي بالأدب في ملتقى واحد ، وكان يرى — كما يقول — أن الوقت الذي ينفقه في التعليم كان الأدب أولى به ، أو هو مقتطع من حق الأدب ، وأن التعليم لا يصله بالحياة الصلة اللازمة لفهمها . وكان يرى كذلك أن أدبه في تلك الفترة نظري بحت أو هو الأدب الذي يعتمد على الكتب ولا يستمد من الحياة إلا قليلا ، فخرج في الأغلب دراسات قوامها القراءة دون التجربة

وسبب آخر من أسباب ترك التعليم . فقد أخذت نذر الثورة المصرية (١٩١٩) تتجمع في الأفق ، وتأججت في المصريين